دبلوماسية الإمبراطورية العثمانية: التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي

A Political, Social and Cultural History: Ottoman Imperial Diplomacy

دوغان غوربينار
Doğan Gürpınar

مراجعة: جبريل ديلغادو -Reviewed by Jibreel Delgado

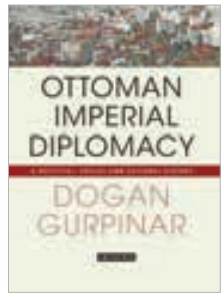

دراسة دوغان غوربينار الأخيرة حول أواخر التاريخ العثماني لا تضع نشأة القومية التركية الحديثة في إطار أي أيديولوجية مفروضة من الخارج تتناقض مع الهوية العثمانية؛ بل تجدها منبثقة عن الاتجاهات الإصلاحية داخل السلك الدبلوماسي العثماني نفسه.

يضع غوربينار دراسته في إطار النموذج الجديد الذي أنتجته أعمال جيل من المؤرخين، بدءًا من دراسة الطليعة التي قام بها رفعت أبو الحاج... مثل ليندا دارلينج، وأرييل سالزمان، وبطرس أبو مانة، وبشارة دوماني (ص3). بدءًا من التسعينيات، حدّد هذا النموذج بدايات الفترة الحديثة للإمبراطورية العثمانية على أنها فترة من الدينامية والتعقيد، الأمر الذي شكّل تحدّيًا للمؤرخين الأوائل الذين قدّموا وصفًا اختزاليًّا لأكثر الفترات تراجعًا. وبالاستمرار على هذا النهج، فإن هذا العمل الحالي قيد الاستعراض، بالإضافة إلى العمل الآخر الذي نشر مؤخرًا لغوربينار: (الرؤية العثمانية التركية للأمة 1860–1950 / Ottoman–Turkish Visions of the Nation, 1860–1950)، يتتبعان الاستمرارية بين أوائل الفترة الحديثة وأواخر القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين.

ينقسم الكتاب إلى سبعة فصول ومقدمة وخاتمة، تتناول الفصول الثلاثة الأولى: (القومية والنظام القديم: سياسة التنظيمات و(أسبقية السياسة الدولية: الدبلوماسية والتفرد بالمعرفة الجديدة)، و(صورة اجتماعية للسلك الدبلوماسي)– مؤسسة السلك الدبلوماسي العثماني في ظل عصر التنظيمات من منتصف القرن التاسع عشر، وتقدم نظرة ثاقبة حول الوضع الاجتماعي لأولئك المنخرطين في الدبلوماسية الدولية، واهتمامهم بالمهارات في العلاقات الدولية بصفتها نوعًا من أنواع عديدة من «المعرفة الجديدة» التي يتطلع الإصلاحيون العثمانيون إلى الحصول عليها... وتتبّع المؤلف في الفصلين التاليين: (روتين السلك الدبلوماسي واللقاءات في الخارج)، و(العقليات وتصرفات السلك الدبلوماسي: التحول الكبير)– التطورات الفكرية من جيل التنظيمات لجيل الشباب العثمانيين في العصر الدستوري الأول، والإصلاحات الحميدية، إلى فترة جيل الشباب الأتراك في العصر الدستوري الثاني وصعود الجمهورية التركية؛ يرصد الكاتب ذلك من خلال عدسة البيروقراطيين في وزارة الخارجية العثمانية... ويرى غوربينار في الفصلين الأخيرين: (الأنماط الأوروبية ووزارة الخارجية العثمانية)، و(مختارات من السلك الدبلوماسي في الإمبراطورية إلى الجمهورية) أن جذور الهوية القومية التركية تعود للتبادل الاجتماعي والثقافي والفكري الذي جرى بين الدبلوماسيين العثمانيين ونظرائهم الأوروبيين، وأن جوانب كثيرة من نشأة تصور الهوية العثمانية تطورت في فترة التحول من نظام التنظيمات الحميدية حتى وصلت إلى مفهوم الهوية القومية التركية.

تستند حجة غوربينار بشكل صريح إلى فكرة الاستمرارية بين وزارة الشؤون الخارجية العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر وصياغة القيم القومية التركية في أوائل القرن العشرين، وقد أسهم استخدام المؤلف للنظرية الاجتماعية لبيير بورديو، بشكل كبير في شرح العادات الاجتماعية والثقافية، والأذواق والتعليم- التي وحّدت النخب في وزارة الخارجية في العصور الحميدية وما بعد العصور الحميدية.

إنّ دراسة غوربينار نجحت في هيكلة الفترة الزمنية التي تتناولها وفقًا للتصنيف التاريخي للأجيال، ويؤكد المؤلف أهمية الجيل بوصفه فئة اجتماعية وسياسية لدراسة الفترة الحديثة «في الوقت الذي تزداد فيه التناقضات الحادة بين الآباء والأبناء وتصبح مستعصية على الحل» (ص210). وقد قُسِّمت فترة التنظيمات إلى ثلاثة أجيال، من أبرز رموزها الدبلوماسي مصطفى رشيد باشا، والباحث ورجل الدولة ورئيس لجنة مجلة الأحكام العدلية للتدوين المدني الأول للشريعة الإسلامية أحمد جودت باشا، ثم القوميون المتطرفون، مثل الدبلوماسي رشيد صفوت.

عمومًا، ساعدت الإصلاحات التعليمية والسياسية والعسكرية التي أجرتها أجيال التنظيمات والعصور الحميدية على إفراز جيل جديد من النخب المثقفة يشير إليه غوربينار بأنه الجيل الاتحادي المنفتح على الأفكار القومية والعلمانية التي أثّرت في الأجيال الشابة في جميع أنحاء أوروبا في ذلك الوقت، وسيتبع ذلك الانعزالية الكمالية ما بعد الحرب العالمية الأولى التي لم تكن مجرد رد على التنازلات الناجمة عن الحرب، ولكن كانت نتيجة لسلسلة طويلة من التنازلات المهينة والانتكاسات بدءًا من نهاية الحرب الروسية التركية في سبعينيات القرن التاسع عشر.

من الممكن تناول بعض التعليقات الانتقادية بشأن التصريحات التي صدرت عن المؤلف مثل تأكيده أنه في العصر الحميدي «للمرة الأولى، كان الرأي العام مسألة مثيرة للقلق» (ص147). بينما في ستينيات القرن التاسع عشر سيطر مفهوم الرأي العام، «efkar-i umumiye" على المشهد السياسي العثماني، لذلك فإنه لا ينبغي افتراض أن الفكرة لم تكن موجودة في فترات سابقة من التاريخ ولو في شكله الكامن. هذه الأنواع من التعميمات الصارخة تعطي مصداقية للتصوير الاختزالي للطاغية الشرقي الذي عقدته أعمال، مثل عمل ليندا دارلينج 2012: (تاريخ العدالة الاجتماعية والسلطة السياسية في الشرق الأوسط: دائرة العدل من بلاد ما بين النهرين إلى العولمة). ومن المهم أيضًا، عند هدم النماذج القديمة على أساس الثنائيات الكاذبة، مثل القطيعة الكاملة بين أواخر الإمبراطورية العثمانية وأوائل الجمهورية التركية ضمان عدم الوقوع في خطأ تجاهل أن هناك العديد من الانقطاعات التي تميز هذه الفترة المتغيرة، وبالتأكيد غيّرت المكائد السياسية والحرب التي أعقبها الاحتلال الأجنبي للعاصمة الانتقال العضوي إلى الأشكال الحديثة للإدارة.

دراسة غوربينار مهمّة جدًّا للقارئ المهتم بالعلاقات بين القومية والدولة الحديثة، وبالعلمانية خارج السياق الأوروبي الغربي لا في إطار المصطلحات التي تساوي بين التحديث والتغريب. وهي مهمة كذلك لأجل الروابط التي استطاع غوربينار تحديدها بين الأخلاق الأرستقراطية للدبلوماسيين العثمانيين في ستينيات القرن التاسع عشر، ومفهوم الاحتراف الحديث الذي طغى على أواخر العهد العثماني/ أوائل البيروقراطية التركية الحديثة المتعمقة... كما أن شرح المؤلف لآثار العوامل السياسية في النخبة التركية من حيث الأجيال، مثل أجيال التنظيمات والأجيال الشابة التركية- يسلّط الضوء على كيفية أن نظرة الجيل الأخير إلى العالم قد تكون نشأت متأثرة بالماضي.